سلطة اللغـــة وحاملات المعنى

في الخطاب الاتصالي

.....د / كاظم مؤنس عزيز

مقدمة

قد لا نكاد ندرك بشكل كاف أن اللغة كمنظومة سيميائية لا تزال غامضة ونائية، ولم تستطع قراءاتنا أن تكشف أساليبها ، ولا أن تناقش معالجتها بتأن وعمق ن والغريب أننا نستخدمها ونتخاطب بها ولا نبالي بوصف ما نضعه ، ومع كل ذلك فأن اللغة تسهم في صناعة التفكير .

مشكلة الدراسة :ـ

ينكشف الخطاب الاتصالي سواء كان مقروءا أو مسموعا أو مرئيا على صيغة شاملة تستوطنها اللغة المنفتحة على كيفيات إبلاغية لحالات قول المصدر، مما يجعل من التواصل عمليات معرفية، لا تتمثل في إنتاج مقولا ت بقدر ما تتمثل في توليد مضامين اتصالية، ولذلك فان الاتصال أي كان نوعه يظل ممارسة لفعل المعرفة بواسطة اللغة التي تشتغل فيه كوسيلة تواصل متفق على وحداتها بين قطبي الدائرة الاتصالية في إطار سياق اجتماعي وثقافي معين، وتأسيسا على ذلك يصبح لنص الرسالة إحالات خارجية مما يجعله قابلا لقراءات متعددة في بعديه الدلالي والتداولي ، ومن هنا تتأتى محاولتنا هذه، متمثلة بالسؤال التالي :ـ

ما المقام الذي يندرج فيه نص الرسالة الاتصالية باعتبارها بنية لغوية ونظاما من العلامات، المنتجة لمفاهيم ومعان متعددة وذات مغزى لدى المتلقي، كلما اصطدمت بقراءات جديدة ؟

أهمية الدراسة :ـ

وتتجلى أهمية البحث من أهمية موضوعه، نظرا لندرة الدراسات المشتغلة على التجسير بين منطقة الاتصال واللغة من جهة وبين الرمز والمعنى وارتباطهما بقراءة المتلقي من جهة أخرى .كما يكتسب البحث أهميته لما يحققه من فائدة للمهتمين والعاملين في المجالات السالفة الذكر

أهداف البحث :ـ

يهدف البحث إلى التعرف على طبيعة العلاقة بين اللغة والاتصال على المستوى الدلالي والتداولي.كما يهدف البحث إلى فهم أدوار التركيب والاستنطاق اللغوي لدى كل من المرسل والمتلقي .

كذلك يسعى إلى التعرف على دور فعالية الرموز، باعتبارها كيفية قادرة على جعل النص منكشفا على الاستمرار، والتحول، والامتداد في بعديه الدلالي والتداولي، وفي إنابتها عن موجودات الواقع باعتبارها حاضنات المعاني .

الطبيعة الاجتماعية للغة :ـ

إننا نتحدث لنتصل، ونكتب لنتصل، وفي كل ذلك نستخدم الكلمات لنقول شيئا ما، لإيصال فكرة أو لتحقيق مقصد ما، ويشار إلى ذلك بان لدينا موقفا أو اتجاها، قمنا بترجمته إلى نص أو رسالة أو مضمون اتصالي.

وهنا يكون قد تركز اهتمامنا وعملنا بقوة على تنظيم عملية القول أو الكتابة فنلجأ إلى اختيار الكلمات، وترتيبها، والاعتناء بها، ورصفها بطرق معينة في خدمة الغرض الذي ننشده، والشيء نفسه يقال عن رصف اللقطات ووضعها في سياق معين. وهذا في حقيقته ولوجا إلى عالم اللغة ، اللغة على أنواعها المقروءة المسموعة أو المرئية، لأن " اللغة نشاطا إنسانيا عاما تتجاوز في كيانها حدود اللسان الذي لا يشتغل داخلها سوى وسيلة ضمن وسائل أخر، لا تقل أهمية عنه (الإشارات ، الطقوس الرموز ، السمات) ولن يكون بمقدورنا ، والحالة هذه ، قصر التواصل على اللسان وحده ، فذلك يعني تجاهل وإهمال أنساق أخرى لها دور رئيسي في إنتاج المضامين الدلالية وإبلاغها " (1) ، فاللغة التي نتواصل من خلالها مع الآخرين، سواء في " الاتصال اللفظي والذي نسميه Verbal Communication أو الاتصال غير اللفظي .

Non Verbal Communication ...تشكل اللغة الأداة التي نقل بها الإنسان إحساسه وتصوره للآخرين ....وإنها تعني في الواقع اللغة التي نتكلم بها ،ونفعل بها ، وأيضا،هي الإشارة التي نستخدمها للترميز كي ننقل ما نريد ونبلغه إلى الناس . بهذه اللغة يحول الإنسان تصوره الداخلي إلى شيء محسوس تشاهده العين، وتسمعه الأذن، ويتحسسه الجسد ، لأن اللغة لها القدرة على نقل الشعور من داخل أعماق النفس الى تعبير غير لفظي مثل الحزن والألم ....وكذلك لها القدرة على تحويل المشاعر إلى كلام نطلق عليه لغة لفظية مفرداتها الكلمات " (2) .

ومن الصعوبة بمكان تحديد أو حصر وسائل الاتصال بين الناس لكن يتفق العلماء على إن اللغة هي القاسم المشترك في كل أنواع الاتصال اللفظي وغير اللفظي ، من حيث أن اللغة هي الوسيلة الأبرز في اتصال الإنسان بمجتمعه وبدونها يتعذر الاتصال لأن " اللغة لا توجد إلا في مجتمع ....وجود مجتمع تنمو من خلاله اللغة، وإلا استحال وجودها ، لأن اللغة في الأساس وسيلة لتفاعل أفراد المجتمع، فإذا انتفى المجتمع انتفت اللغة ." (3) ،ويأتي ـ هولم ـ في معرض استحسانه للغة، والحاجة إليها كضرورة من ملزمات التواصل على الصعيد الجمعي على القول " لا بد للغة من أداء وظيفتها الجماعية ، وأن تربط كلماتها بالمعاني التي يفترض ان يشترك فيها الناس معا "(4) ليس هذا فحسب، فلقد أصبحت كذلك دراسة النظم الاتصالية داخل الجماعات تعتمد كثيرا على علوم اللغة والمعاني ودلالات الرموز، لأن الاتفاق الجمعي الذي يسير عملية الاتصال، يعتمد على ما اتفق عليه من معان، ورموز بين الأفراد المشتركين في ذلك، على اعتبار " أن اللغة إنتاج اجتماعي، وغرضها هو التفاهم .....ولدت، تحت سلطان الحاجة إلى العلاقات المتبادلة بين الأفراد "(5) ويأتي دي سوسير على ذكر مثل هذه الفكرة بقوله :ـ " إن النظام اللغوي من طبيعة اجتماعية " (6) .

ومع تعقد حضارتنا وبعد المسافات وزيادة الكثافة السكانية وتطور تكنولوجيا الاتصال وتفاقم الحاجة إلى التواصل، برزت حاجة المجتمعات الكبيرة إلى قهر بعدي الزمان والمكان لتحقيق التواصل

بكافة مستوياته مع المجتمعات الأخرى، إذ تأكد بما لا يقبل الشك بأن الاتصال حاجة ترتبط بوجود الأفراد في المجتمعات المنظمة، لأن هذه " المجتمعات لا يمكن أن تبقى متماسكة إلا بالاتصال الذي لولاه لما تم أي تفاهم بين البشر ولما ارتبطت المجتمعات بعضها ببعض " (7) .

واللغة إذ تؤكد وظيفتها الاتصالية تثبت في نفس الوقت ضرورتها كعنصر تعبيري نوعي يضرب جذوره في عمق التأريخ الإنساني، ويتأسس ذلك في مقولة فوكو " من ان اللغة، شأنها شان كل أدوات التعبير تسيطر عليها قوى تنبع من أعماق التأريخ " (8) تربطها بوجود الإنسان، وتضعها على رأس حاجاته القصوى التي تتكفل له باستمرار الحياة عبر العيش في مجتمعات منظمة تتعايش على وفق حاجتها في التواصل مع بعضها البعض.

ومع تطور نظم الحياة المجتمعية عبر سنين طويلة، وتراكم النتاج الحضاري والإنساني في المجالات المعرفية المختلفة، ازداد تفاعل هذه المجتمعات مع بعضها، كما ازدادت الحاجة إلى تنظيم الاتصال فيما بينها بسبب دوافع شتى، وأصبحت الحاجة إليه من ضرورات الحياة الجديدة التي لا يمكن للإنسان أن يحقق تلك الحاجات ألا بوجود الآخرين ، ومن أبرز النظريات التي تعرضت لدراسة الحاجات تطل نظرية الدوافع لإبراهام ماسلو والتي يضعها في شكل هرم يظهر أهميتها بحسب أولوياتها على وفق الآتي :ـ

- " الحاجات البايولوجية Biological Needs
- حاجة الأمن Needs Safety
- حاجة الانتماء والحب Love Needs & Belonging
- حاجة اعتبار الذات Self Esteem
- حاجة تحقيق الذات Self Actualization Needs

ولهذه الحاجات سلم أولويات " (9) حيث ينتقل الإنسان من أسفل الهرم إلى قمته بحسب الأهمية، من تلبية حاجة إلى أخرى، فبمجرد أن يشبع حاجته الأولى ينتقل لتلبية الثانية.

وفي كل ذلك وغيره كانت تتأكد حقيقة مفادها بأن جميع الحاجات الاجتماعية لعصرنا لا يمكن إشباعها إلا بواسطة الاتصال، لأن إدارة المجتمع وحاجاته وجميع صور الاحتكاك بين الناس لا يمكن تحقيقها إلا بتوسط وسائل الاتصال، التي توسعت وتطورت بشكل مهول بفعل التكنولوجيا التي أصبحت هي المهيمنة والمحتكرة لجميع العمليات الاتصالية. ولم يكن تأثير ذلك منصبا على الوعي فحسب بل أمتد إلى الأفكار والتصورات كما ترك آثاره الواضحة على الإدراك والرؤية .

وقد كُرست وسائل الاتصال على اختلافها وتنوعها لتميز حضارة هذا العصر، الذي لم يعد بمقدور الفرد معرفة أي شيء عن مجتمعه، أو عن مجتمعات العالم، إلا بواسطة وسائل الاتصال، التي لم

تتوقف وظيفتها عند نقل التصورات والمفاهيم الى جمهور المتلقين، بل تعدت ذلك إلى فضاء أرحب يتمثل، بتثبيت، وتوسيع، وتبديل هذه التصورات وتلك المفاهيم في عقول الآخرين، كلما تطلب الأمر ذلك . وتحت وطأة هذا السيل العارم والجارف الذي تحاصرنا به الميديا ووسائل الإعلام، فأن الفرد لم يعد يصدق شيئا إلا إذا تم نقله عن طريق هذه الوسائل، حتى وأن كانت الأحداث والوقائع تحيط به، ويتعايش معها بشكل يومي، فهو لم يعد قادرا على الإحاطة بها ولا استيعابها إلا عبر وسائل الإعلام، كما أن الاتصال لم يعد هو الآخر، كما كان في سابق عهده مباشرا ما بين الفرد ومجتمعه، أو كما كنا نقول بينه وبين خبرات وتجارب معاشة، بل أصبح يصل إلى الفرد بواسطة تتمثل اليوم بوسائل لا غنى عنها .

" ويتفق علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي على أن الاتصال لم يكن ممكنا بين البشر دون الاتفاق على معان موحدة للرموز الموجودة بالبيئة ، ويترتب على هذا الاتفاق تشابه الاستجابات بين الناس، فيزداد التفاعل بينهم بازدياد خبراتهم الاتصالية المرتبطة بادراك هذه الرموز ومعانيها . ويعتبر أدراك الرمز وتحديد المعنى هو العملية العقلية التي ينظر الأفراد من خلالها إلى الأشياء والأشخاص في المواقف الاتصالية المختلفة ،وفي هذا الإطار يتم الربط بين العمليات العقلية وعمليات الاتصال الإنساني ....وكلما اتسع إطار المعاني المشتركة كلما تشابهت الاستجابات في عمليات التفاعل الاجتماعي، ويعمل ذلك أيضا، على زيادة قدرة الفرد على توقع استجابات الآخرين نحو الأشياء أو الأشخاص أو المواقف في إطار الثقافة الواحدة " (10) التي تلتقطها حواسنا باعتبارها جهازنا الاستشعاري الأول في تكوين مدركاتنا التي تشكل اتجاهاتنا عن البيئة المحيطة والوجود، من حيث " أن حواسنا هي وسيلتنا للاتصال بالعالم الخارجي، واللغة باعتبارها وسيلة هذا الاتصال، تقوم بدور الوسيط بين خبراتنا الذاتية ومعلوماتنا الموضوعية " (11) .

ولكي نتمثل هذا التعبير بعمق فإن " انجح الوسائل لوصف هذا التواصل هي اللغة" (12) على اعتبار" أن اللغة بمفهومها العام وسيلة للتفاهم والتواصل والتعبير عن العواطف والأفكار عامة ..... فاللغة التي يمكن أن يصطلح على دلالاتها وأدواتها وأشكالها يمكن أن تكون رموزا أو اصواتا وإشارات أو صورا وألوانا أو خطوطا وأشكالا وألفاظا ومقاطع صوتية وعبارات ، وما إلى ذلك يمكن الاتفاق على دلالته على معنى معين "(13) .

وحول فهم المعاني المشتركة بين الأفراد يأتي أرسطو على ذكر معنى يتفق مع ما ذهبنا إليه، إذ يرى " بان معرفة العالم الذي نعيشه لا يعتمد فقط على ما نلمسه بحواسنا، ولكن يعتمد على ما اتفقنا عليه في إطار الجماعة أو المجتمع حول المعاني المشتركة لهذا العالم من حولنا ، وبالتالي نجد أن الحقيقة هي عبارة عن بناء اجتماعي أو اتفاق اجتماعي حول الخصائص أو الصفات التي تميز هذه الحقيقة وتيسر على الناس إدراكها وفهمها ."(14) .

وينتهي هذا المدخل إلى القول بان الاتصال لم يكن العلاقات الإنسانية فحسب بل هو كذلك الشحذ الذهني والعقلي الذي يمارسه الإنسان في الوجود، الذي به والذي من خلاله تنمو وتتطور هذه العلاقات، كما تتطور الرموز المنتجة لنص المضمون الاتصالي، ويرى عالم الاجتماع ـ تشارلز كولي ـ في معرض تعريفه للاتصال " بان الاتصال يعني ذلك الميكانزم الذي من خلاله توجد العلاقات الإنسانية وتنمو وتتطور الرموز العقلية بواسطة نشر هذه الرموز" (15) وفي الحقيقة أن الاتصال ليس فقط

عملية عقلية لأنه نشاط ذهني فحسب بل هو أيضا نتاج عملية فهم مشترك في إطار دلالي يربط المرسل والمتلقي بذات المفاهيم المرتبطة بذات التصورات التي أستعيض عنها بالرموز، فالاتصال لدى كل من ـ بيرلسون وستاينر ـ يمثل " عملية نقل المعلومات والرغبات والمشاعر والمعرفة والتجارب، إما شفويا أو باستعمال الرموز والكلمات والصور والإحصائيات بقصد الإقناع أو التأثير على السلوك" (16) .

ومن البديهي القول بان عمليتي التأثير والإقناع المذكورتين لن يتحققا ألا إذا انكشفا بالضرورة على توحد في فهم متفق عليه بين قطبي الدائرة الاتصالية حول تفسير معاني الكلمات والرموز، لأن الاتصال بماهيته لا يمكنه إلا أن يكون فهما مشتركا بين الاثنين، وهو ذات التصور الذي يذهب إليه ـ جورج لندبرج ـ في معرض تعريفه للاتصال بأنه " نوع من التفاعل يحدث بواسطة الرموز التي قد تكون حركات أو صور أو لغة أو أي شيء آخر يعمل كمنبه للسلوك " (17) بمعنى أن على القائم بالاتصال ينبغي أن يكون واع في تأسيس طبيعة المثير الذي يمكن أن يوقظ تلك الاستجابة التي رامها عند الآخر، مما يضع الاثنين في مدار مفهوم مشترك، يوحدهما في تركيب واستنطاق ذات الأفكار والمعاني، ويرى كل من ـ روجرز وكنكايد ـ بأن الاتصال هو " العملية التي يخلق فيها الأفراد معلومات متبادلة ليصلوا إلى فهم مشترك " (18) .

ومع تطور علم الاتصال والتعمق في آلياته المعرفية فيما يختص بالمرسل والمستقبل تأتي مقولة الناقدة ـ جوليا كرستيفا ـ لتضيف إلى أهمية اللغة كنموذج للاتصال " أمكانية التعرف على لغات أخرى وبنيات مختلفة لأنظمة الاتصال... إن الحركات والإشارات المرئية المختلفة، وكذلك الرسم والصورة الفوتوغرافية والسينما والفن التشكيلي تعتبر لغات من حيث أنها تنقل رسالة من مرسل إلى متلق من خلال استعمال شفرة نوعية " (19) .

ومع أن كل ذلك يشير إلى حصر العلاقة بشكل مباشر بين القائم بالاتصال والمتلقي (وهما قطبي الدائرة الاتصالية في كل أنواع الاتصال بلا استثناء) في الاتفاق على ذات المرجعية، غير أنه من جانب آخر يعد تماشيا مع إصرار ـ مونان ـ على استعمال ذات الشفرات التي يرى من الأهمية بمكان " أن يكون المرسل والمتلقي على حد سواء في وضع يسمح لأي منهما بان يستخدم كوده واحدة .....أن يكون المتلقي ملما بكوده المرسل ليصبح بذلك قادرا على فك كوده الرسالة " (20) وسواء كان المصدر فردا أو مؤسسة أو جماعات، فان ذلك سينص على أن الأفراد داخل الجماعات تتفق على الدلالة اللغوية من خلال منظور ثنائي يؤكد جدلية العلاقة بين الطرفين واستمرار حضور الرمز والمعنى الذي يستدعيه، ونجد ثلاثة أنواع من الدلالة : هي الدلالة الطبيعية والعقلية والدلالة الوضعية ، وهي وان تنوعت مسمياتها إنما تتركز في الدال والمدلول أو بين الرمز وما ينوب عنه من معنى (21) .

<u>اللغة هندسة الدماغ ومادة التفكير:ـ</u>

تتلبس اللغة ظاهر وباطن الخطاب الاتصالي، بامتياز بل قد نقول الخطاب البصري بشكل خاص،كونها أهم علاماته الفارقة، لأنها في ذلك تتمثل ميزتين:ـ فنية واتصالية . وهما المقياس الذي يبلور ما نسميه بفعالية الاتصال، حيث تتجلى اللغة هنا بمظهرها البصري أو السمعي على حد سواء كنموذج إبداعي في تحولاته وإزاحاته .

بَيد أن هذه المتغيرات على اختلافها وتنوعها، قد أثرت اللغة، وعمقت فلسفتها الجمالية، ووسعت كثيرا من مكوناتها، فجعلت منها فضاءً مفتوحا لاندماج وسائط تعبيرية مختلفة وملتقى لعلوم متنوعة، فنهلت من مشارب ومضارب متعددة ومتباينة، فضمت إليها أدوات التصوير من لفظ وصياغة، واضطلعت بالبلاغة، فخصت عناصر الصورة اللغوية بالتشبيه والمجاز.

ومع كل ذلك لم تستبدل اللغة ارتباطها بالواقع، إذ لطالما كانت نتاجا اجتماعيا في بعض وجوهها، يشترك فيها القائم بالاتصال والمتلقي الذي يهتدي عن طريق اللغة ذاتها إلى المعاني التي ينشدها الطرف الأول، من خلال " تحليل اللغة بما تتضمن، تحليل الكلمات، وتحديد معانيها، والبحث في الجمل، وصحتها، بوصفها بنية رمزية للحقائق "(22) ويتوافق هذا القول مع التصور التالي الذي يفضي إلى أن " اللغة في حقيقتها ليست إلا رموزا اعتباطية لصور ومفاهيم معينة " (23) وإذا كان ثمة أزمة تعوق فهم معاني الرموز وتحول دون تحقيق اتصالا ناجحا لدى المتلقي، فلابد من وجود إشكالية ما، قد يكون منبعها المرسل، أو المتلقي لأنه لم يستطع أن يخالط الخطاب اللغوي فيتذوقه أو يتأثر به بشكل إيجابي ليتفاعل معه، ومتى ما وقف الخطاب الاتصالي حائلا دون التأثير في متلقيه،أو مشاهده، أو قارئه، كان ذلك إيذانا بوجود خلل ما . وما يعنينا هنا هو سلوك اللغة الاتصالي وهي تتحول إلى فضاء علاماتي يتأسس على تقابلات وحداتها المتسقة والمتنافرة، كونها تتضافر في تشكيل حقلا دلاليا في المستويين الأفقي والعمودي، يتمثلان حراك الرمز في فضاء النص الاتصالي، مؤسسا في مستواه الأفقي، من خلال التقابل إنزياحا على المستوى اللغوي، إما على المستوى الثاني، فيحيل إلى مرجعيته، التي أسست من قبل لمغزى المضمون الاتصالي، لتصبح لاحقا معادلـه المكافئ .

ولكن هل من الممكن الحديث عن لغة ما في وسائل الاتصال وفي العملية الاتصالية ؟

قد نتسرع في الإجابة، فيقفز إلى الذهن مباشرة الإقرار بذلك ، ولكن تظل الفكرة بحاجة إلى التقرب منها بقدر مناسب، وتناولها بعمق لفهم ميكانزمات التواصل لأنها أن كانت كذلك فما مفرداتها ؟ وكيف يمكن لها أن تنظم نفسها لترتقي لمستوى خطاب اتصالي مقروءا أو مسموعا أو مدركا بصريا ؟ وكيف تسنى لها أن تنشئ في جوهرها نمطا من المواضعات والأحكام ؟

أن انحياز وعي الباحث إلى اللغة يتأتى من رؤية قائمة على دورها الفاعل وهي محاولة ترقى إلى تأسيس خطاب اتصالي، وأي كان نوعه فسيبدأ من اللغة وينتهي إليها، مؤكدا إنسانيتها وقدرتها في التحري والتشكيل، والتوليد لخطاب مغاير، تتماها فيه اللغة ككائن مثالي حي يتصف بالثراء والغنى بشكل مطلق، كما أنها مرجعية دائمة للخطاب، فضلا عن كونها تلك القوى المحرضة دوما على إنتاج مستوى جماليا متواصلا، فتصبح اللغة حالة، في نفس الوقت الذي تستحيل فيه إلى توصيف دقيق للحالة.

و قد تتلبس اللغة بسلوكها عموما أو الرمز بشكل خاص، ثنائيات تتحلى بالتوتر في ممارسة جمالية متأججة لتصادمات، وتزاحم لتعارضات، وهنا يكمن سر غنى وثراء اللغة والرمز على حد سواء.

فالرمز اللغوي لا قيمة له من دون أن يتشكل عبر ممارسة علاقاته مع الوحدات المجاورة، لتتحرر المعاني وتتشكل الدلالات والتراكيب. وعلى وفق هذه الجدلية وهذا المستوى الخلاق تنبع الصورة،

فيصبح الرمز مفجرا للحظة المعنى، عبر تلك الأبعاد اللغوية المتمثلة بالوحدات المتراكمة لتنتج بمهارة فائقة وبالغة الدقة ما يسمى ـ الرسالة الاتصالية ـ ويستحيل الرمز هنا سلوكا لغويا بامتياز. فقد كفل تأسيس حدوده، وصفاته، وملامح شكله، فنمى وتسلل من الخارج إلى الداخل لينبثق عائدا من القائم بالاتصال إلى المتلقي. بيدَ أن البيئة وكل العوامل الوسيطة قد سبقته فاتجهت إلى داخل المصدر، وكمنت هناك، لتتحول لاحقا إلى اللغة، أداة القول، أداة التخاطب، والتواصل، وأن من " انجح الوسائل لوصف هذا التواصل هي اللغة فنحن نتواصل تواصلا لغويا إن صح هذا التعبير "(24) وهذا ما يؤكد دورها الوظائفي الذي يمكن أن نجد في إشارة ـ سابير ـ المعبرة عن هذا المعنى ما يعزز ذلك، بقوله أن " الوظيفة الرئيسية للغة هي وظيفة الاتصال " (25) .

بمثل هذه الحيوية تسود اللغة على الخطاب وتلك هي طبيعة اللغة البشرية وبنيتها وهندسة نموها ومستويات تمثيلها، غير أن الخصائص التي قد تبدو حكرا على اللغة، هي في حقيقتها نتاج القيود التي فرضتها الأنساق، لتجعل هذه الأخيرة من البنيات اللغوية شأنا قابلا للتأويل. وتأسيسا على ذلك نصر على أن الاتصال في جوهره، وأي كان نوعه هو نشاط ذهني، وهو ملكة اللغة، وهندسة الدماغ، وطوبوغرافية ملاكاته المعرفية المتعددة وخطابها، وهدفه أن يكون خطابا توليديا لبلوغه أقصى درجة من عمق التفسير، وحتى تلك الصور الصادمة في حراك اللغة والرمز على حد سواء على ظاهر البنية اللغوية أنما هي تجليات في سياقها وفضاءها، فاللغة هي الأساس الأوحد الذي يدور حوله الفن والاتصال عموما، وأي تمرد على ذلك يعني هدم أساساتها وانزياحا نحو التيه وتأسيسا لعالم الفوضى، ولهذا فان انحيازنا الواعي متأتيا من فعل ضغط وعي معرفي، بهيمنة اللغة على القائم بالاتصال، مقابل هيمنة القراءة السليمة لدى المتلقي" فاللغة وظيفة عضوية في الإنسان، وهي كذلك أساس طبيعي.....للصلات الاجتماعية والسياسية ، ووحدة اللغة هي الكلمات " (26) وما حضور الرمز(الوحدات) إلا ضرورات جمالية هي من جوهر واقع اللغة وصيرورتها.من حيث أنها شخصنه لموجودات ما، لموجودات حسية تؤسس مادة الفكر في إطار ثقافة ما، وفي إطار سياق اجتماعي يشترك فيه الأفراد مما يخلع عليها تلك القيمة اللغوية التي استحالت إلى ابرز مظهر لمادة التفكير. على وفق هذا الترابط الديالكتكي تتجلى علاقة الفكر باللغة فهي العامل الفاعل في تمظهره بصيغة ما، كما أنها حالة تفاعل منتج ومستمر، وهي كما يصفها بروست بأنها " تماما كالموسيقى، يمكنها أن تسند معنى ما بواسطة تنسيقها الخاص ....وان الأفكار هي الوجه الآخر للغة، وعندما أفكر تنشط لغتي الداخلية " (27) .

التفكير بالكلمات :ـ

ولأن الاتصال عملية عقلية واجتماعية ونفسية لذلك فأن " مجرد نطق الكلمة سيدل على شيء ما، فيحدث في الفكر حركة ما. وهذه الكلمات رموز لمعاني الأشياء، أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولا، ثم التجريدية المتعلقة بمرتبة أعلى من مرتبة الحس ثانيا، فهي رموز لحالات نفسية هي مادة للفكر، فمعانيها المشتركة بين الناس هي التي تعطيها كل قيمتها اللغوية ، وبهذا وحده نستطيع أن نفكر بالكلمات ونبني حججنا عليها بوصفها رموزا للأشياء " (28) .

أن علاقة اللغة بالكلمات علاقة من نوع غريب، إذ أن الأولى تضفي على الأخيرة فضاءً رحبا، وتفتح أمامها مدى ممتدا، فتجعلنا بحكم استخدامنا لها، بأنها تعني أكثر مما تبدو عليه، لأن حقيقة "

الكلمات هي في الواقع مجرد رموز " (29) بينما حقيقة اللغة من منظور دي سوسير في إطار دائرة التوصيل اللغوي هي عبارة عن كلمات وهذه الكلمات هي في حقيقتها عبارة عن رموز، فالناس يستخدمون " الكلمات كعلامات لأفكارهم " (30) على اعتبار أن إدراك الموجودات ينتهي إلى ذات النظام العلاماتي المخزون كمفهوم ينتمي إلى الرصيد الذهني للجماعة المتفقة، والمتوحدة في استنطاق ذات المعاني من تلك الكلمات، كون " الكلمات مثل الرموز، أنها تحدد شيئا خارجا عنها ، أنها تدل على شيء ما ....الكلمات تعني الشئ الذي يجعلنا نفكر فيه " (31) فهي تحث الوعي على الإدراك وتلمس الواقع عن طريق الإمساك به لتستخلص منه فكرة ذات معنى عندها تصبح الكلمة مظهر الأشياء ، أو حالتها في الواقع، وهي كما يدركها العقل أو الحواس .

ومن هنا يتأتى العمق الجوهري لطروحات ـ وتكنشتاين Wittgenstein ـ من أن اللغة " تمثيلية بصورة لا مفر منها، وأنها لا يمكن لها ان تتجنب التعبير عن ذاتها بوسائل تنسجم مع الواقع الموضوعي " (32) .

ولأن المضمون الاتصالي بصرف النظر عن اختلاف وسيط التعبير هو نظير مساو للواقع في أصالته، ويتفوق في أنه يستطيع أن يخاطب الحدس مباشرة وان يستحوذ عليه في فعل الإدراك لذلك فان الوحدات أو الكلمات على حد سواء هي حاضرة بالإنابة عن الموجودات العيانية، وهي كنظام تركيبي، فإن الكلمة عضو أساسي في هذا النظام الذي ينطوي على " مجموعة من كلمات تخلق مفهوما عن الواقع عوضا عن مجرد عكس الواقع ...(فاللغة) مجموعة منتظمة من الكلمات التي تخلق مفهوما عن المدركات الحسية في الواقع " (33) وكما أن الرسالة تعد بمجمل فضائها فعالية اتصالية يتحدد مضمونها الاتصالي بناءا على غاياتها، فان الكلمات كوحدات هي الأخرى تواصلا لسانيا منظورا إليه كذلك، لأنه يجري بين المتكلم والمخاطب " فالكلمات في الواقع هي الواسطة الأساسية للتواصل البشري"(34) ولديها فاعلية تواصلية تؤهلها إلى ترميز الموجودات وتيسير معانيها فكما أنها في " الكلام عبارة عن واسطة اتصال ...(إذن فان للكلمات وظيفة) وعلى عاتق هذه الوظيفة يقع نقل المعنى " (35) .

وكما أن لا وجود للفكر خارج اللغة، كذلك لا وجود للمعنى خارج الكلمة أو من دونها ويرى باوند " بأن اللغة مصنوعة من الأشياء الملموسة ،وان صحة الحالـــة تعتمد على تطبيق الكلمة على الشيء " (36) بمعنى أن الكلمات في فضاء اللغة معادلا مساو لمعاني الموجودات في الواقع وهو كذلك رأي ـ كيرترود شتاين ـ بالإقرار " بأن هناك صلة وثيقة بين الكلمة والشيء ....وان الكلمات تمارس سيطرة على الواقع " (37) ومن الطبيعي ان تكون كذلك، بل ينبغي لها أن تكون، طالما لا وجود للأشياء خارج هذه الكلمات التي يتوحد في معناها المرسل والمستقبل في أية عملية اتصالية. فهي كمدلول موافق لدال في إطار دلالي مشترك لجماعة أو أفراد ما " ولا يوجد معنى معلق خارج مجال ما " (38) .

وتأسيسا على ذلك فأن اللغة سواء بصورتها الكلية المهيمنة أو بصورتها الجزئية، فهي تترسخ في منظور جيرو " كنظام أشاري من أنظمة أشارية عديدة تدخل كلها ضمن إطار السيميولوجيا ويقول بهذا الشأن : اللغة نظام أشاري يعبر عن الأفكار ...وبذلك يمكن مقارنته بالنظام الكتابي وبالنظام الألفبائي للصم والبكم وبالنظام الإشاري العسكري وبالنظام الإشاري ألنقشي....الخ " (39) فالرموز هي

نوع من الإشارات الاصطلاحية التي يصنعها الإنسان والتي يستخدمها للاتصال ويتأتى معناها من خلال الاتفـــاق بين الأفراد أو المجتمعات التي تستخدمها . والرموز على اختلافها معنية بوجود مشتركات بين الرمز والشيء الذي ينوب عنه فمن وظيفة الرمز أن يتحرى هوية الذي ينوب عنه، والشيء نفسه يقال عن العلاقة بين الإشارة ومعناها الذي يقوم على التواضع، وبالتالي فان اللغة رموز تواضعية بحتة، كما أنها تنتمي إلى فئة الرموز البحتة (40) . إن موقع اللغة هو الذي يجعل منها جسرا في التواصل الإنساني وبفعل قدرتها التوليدية والدلالية تحقق وجودها الذي يمكنها من إنتاج مستويات شتى من الدلالات الغاطسه والصريحة وهي كلها ترجع في النتيجة إلى السياقات الاجتماعية التي تحكم إنتاج الدلالة كما تحكم تداولها لأن " العالم بكل موجوداته يحضر في الذهن على شكل مضمون لساني، فنحن لا يمكن أن ندرك هذا العالم ولا نعرف عنه شيئا إلا عبر الكلمات "(41) وبالتالي فان اللغة بمجملها عبارة عن منظومة رمزية حيث يشكل " الرمز Sign الوحدة الأساسية في أي لغة ....أن أي كلمة في اللغة هي رمز وإن اللغة تعمل بوصفها نظاما من الرموز ....وأن أي شي ء مهما كان طبيعيا أو مصطنعا يمكن إن يتحول إلى رمز بشرط إن يستخدم لنقل رسالة ما ، أي بشرط أن يدل (طالما) أن طبيعة الرسالة التي تنقلها الرموز ...تحددها الثقافة التي يعيش فيها المرسل والمتلقي " (42) بمعنى ان الاتصال القائم بين المرسل والمتلقي هو اتصال أساسه الاتفاق على معاني (الكود) الرمز لدى القائم بتركيب الأفكار وتحويلها إلى رموز، وكذلك عند الآخر، المتلقي الذي يقوم بتحويل الرموز الواصلة إليه إلى معاني، فعند استخدام الأشياء " بوصفها رموزا فأنها تدخل في ما يدعى بنظام الرموز Code ، وهو قناة اتصال تربط الجانبين المرسل والمتلقي بأي تبادل ثقافي من هذا النوع " . (43)

ولأن التقابل بين الرمز والمعنى الذي يتم استدعاءه، يقترن بحضور مفترض لشيء خارجي في ذهن المتلقي في إطار الثقافة المتبناة من قطبي العملية الاتصالية، فان ذلك يشترط تعلم الرموز ودلالاتها في بيئة التفاعل وان التفسير والإدراك للمضمون الاتصالي يعتمد على درجة الإدراك، لدى كلا من المرسل والمتلقي، حيث يتم ذلك بتأثير العامل المعرفي المكتسب من البيئة والثقافة التي تشاركانها، ولا يفوتنا هنا أن نؤكد على الفروق والتفاوت في مستويات التعلم وغيرها من العوامل الديموغرافية، فضلا عن الخبرات الثقافية ونوعها وحجمها ، فمن الضرورة بمكان التسليم بأن ثمة فروقا وتباينات كثيرة متوقعة في عملية تفسير الرموز أو مضمون أو نص أو رسالة يتسلمها الأفراد " ذلك لأن تفسير الناس لهذه الرموز يعتمد بالدرجة الأولى على المخزون المعرفي الذي يستطيع الفرد من خلاله أن يسقط على الرموز دلالاتها ومعناها، وبقدر اتفاقه مع الجماعة يرتبط التفسير والمعنى بما اتفقت عليه الجماعة.وبذلك فأننا نتوقع أيضا اختلافا بين الفئات أو الطبقات أو الشرائح أو الجماعات المختلفة داخل المجتمع الواحد في تفسيرها للرمز الواحد الذي يمكن أن تختلف دلالاته من فئة إلى أخرى ." . (44)

الـفـعـــل اللغـــوي :-

والرمز في تجلياته ينضوي تحت اللغة، مهما كان جنسها ونوعها، وقد سجل هذا التصور حقيقة ملازمة له، فالرمز يرتبط بأي نظام تعبيري سواء كان نظام لسانيا أو غير لساني، أما عن علاقته بالأجزاء

الأخرى وما يحتله من موقع داخل هذا الكل المسمى بفضاء اللغة، التي هي أساس شرطه التكويني، فهو يبدو بشكله المستقل غير قادر على تحقيق ذاته ألا من خلالها، وليس له فاعلية الاتصال ألا بها وعن طريقها، فغاية اللغة سعيها " إلى ترميز العالم الذي تمثله " (45) وهذا " ما يجعل منها نظاما سيميائيا " (46) وهو تصور يتوافق مع ما ذهب اليه ـ أدوارد سابير ـ في كتابه اللغة 1921 الذي اعتبر فيه ان " اللغة نظاما رمزيا " (47) فضلا عن كونها تلك الأداة العظيمة في عملية الوعي والتي عن طريقها نرى الأشياء على نحو واع، وهي حين تحيل الأشياء إلى مدلولات لدال ما، فهي إنما تقوم بترميز الأشياء، ليظهر الرمز كعنصر يختزل العديد من المواصفات الكمية والكيفية، يختزن الكثير من الطاقة التي تضفي بالضرورة على نص الرسالة بعدا دلاليا، فضلا عن بعدها التداولي، حين يجعل النص منفتحا لا يتوقف عند كفايته، ويدفع به إلى الاستمرار والتحول والامتداد، و يتماها مع اللغة فيعود إليها بسبب الترابط الحاصل، ليتجلى في تكامل العلاقة داخل نص المضمون الاتصالي، مما يجعل منه متعدد الإبعاد والدلالات.

وتأسيسا على ذلك فإن الرمز بمجرد أن قبل الاندماج داخل النص تحول إلى وحدات بنية نصية مدمجة، وموجهة في إطار كلية النص أو الرسالة، فهو أبنيتها الجزئية، المكروية، الخارجة من جغرافية النص الاتصالي، لتستحيل إلى فضاء مفتوح، بقراءات متعددة في مرتكز محوره العمودي أو مستواه الدلالي .

و لأن النص في ماهيته نتاجا، يتمثل موقف القائم بالاتصال، من حيث أنه " نموذج للسلوك اللساني الذي يمكن أن يكون مكتوبا أو منطوقا " (48) وهذا يسري على النص أي كان نوع وسيطه التعبيري، فهو في النهاية سيبقى نموذجا للسلوك الاتصالي، له إحالاته الخارجية من خلال الرموز المحررة لشكل النص طالما هي وحداته الجزئية التي أتفق عليها. وما النص " إلا فعل لغوي .... تشتغل اللغة فيه وسيلة للتواصل ....ويعرفه مايكل ريفاتير بأنه ليس إلا سلسلة من وحدات إخبارية متعاقبة " (49) وهذه الوحدات مسيقة في نسيج اللغة، وهذه الأخيرة متمثلة بمركب شامل من الوحدات المنسجمة أو الكودات على حد تعبير إيلام، إذ يرى بأن " اللغة في الواقع مركب من الكودات " (50) وفي معرض تحديد وظائفها وتعريفه لها يجد " بأن اللغة هي وحدات متماسكة ومحددة بشكل جيد وأنها حاملات اتصال اتفاقية "(51) أما النص فهو" مضمون السلوك الاتصالي ويتضمن اللغة ....وتعني مجموعة الرموز التي لابد أن يكون لها مغزى عند المتلقي "(52) الذي يعد عنصر أساسي في العملية الاتصالية، نظرا لدوره الفعال في إنجاز الإنتاج الاتصالي، وصحيح أن الحقل اللغوي يفسح مجالا واسعا لإنتاج قراءات متعددة لكن ذلك مرتبطا بالفروق الفردية والتجربة المشتركة بين القائم بالاتصال والمتلقي، وفي ضوء هذه العلاقة عادة ما تتحدد لغة الرسالة آو النص المبثوث، لأن شكل اللغة ومضمونها يتحدد بهذه العلاقة ويتأثر بها تأثيرا واضحا، ونحن وان نتناول بعض المكونات بالوصف أو الإشارة لكن لا ينبغي أن نتجاهل حقيقة بالغة الأهمية، بان العمليات الاتصالية لا تقوم على الأجزاء بل على الكلية وهنا يجب أن يفهم أن الكلام يدور في كلية الرسالة آو كلية النص بكل ما يشتمل عليه وبقدر تعلقه باليات العملية الاتصالية وبنيتها العامة، ومن هذا المنظور تتأكد تحذيرات موكاروفيسكي بأن العمل بمجمله ينبغي " أن يفهم كرسالة ولا يجب النظر إليه كمحتوى متضمن في شكل لا معنى له " (53) فالمصدر في خطابه الاتصالي يقوم بفعل إبداعي ، يقوم في ممارسة لغوية، ولن يكون للحرف ولا للكلمة معنى لدى المتلقي إلا لكونها تأخذ مكانا ضمن

السياقات اللغوية المكونة لفضاء الرسالة حيث نجد عند سوسير " إلى جانب فكرة العلامة لديه فكرة القيمة " (54) بمعنى أن الكلمة أو الوحدة يتوقف معناها على علاقتها بالوحدات الأخرى، والجملة يتكون معناها من مجموع المعاني في كل وحدة أو كلمة، أي من المجمل، أي من مجموع تراص الوحدات في نسق منتظم، وما التوكيد اللغوي إلا تركيز اللغة على وحداتها الصغرى التي تركب بنية مضمونها الاتصالي، وتكونه، وتنشئه، فضلا عن تأكيد علاقتها مع بعض، على أساس أن العلاقة ليست رمزا لشيء خارجي، بل أنها تسبق الشيء، ولا يمكن عزلها عن دلالتها المادية خارج نص الرسالة الاتصالية، فالرمز ليس مستقلا ولا منفصلا عن الواقع المادي الذي افرزه، وكما لا يجوز عزل الرمز عن الواقع المادي، كذلك لا يجوز فصله عن اللغة، فهو وحدتها البنائية الصغرى.

وتأسيسا على ذلك يصبح من العسير فصل اللغة عن الواقع ومن هنا تكتسب طروحات ـ فيتكنشتاين ـ في محاولته لتفنيد اللغة التي عالجها في إطار ـ نظرية الصورة ـ من أن " اللغة تشترك مع الواقع بصورة عامة ....حيث تركز جدل هذه النظرية عند فيتكنشتاين بان هناك علاقة لا مفر منها بين اللغة والواقع " (55) والجدير بالذكر أن ـ ميشيل فوكو ـ تبنى ذات الفكرة عند تناوله لطبيعة وعمق العلاقة القائمة بين اللغة والواقع " إذ لاحظ من أن اللغة حتى في أكثر حالاتها استقلالا تبقى تمثيلية إلى حد ما ، على نحو لا مفر منه " (56) .

ولأن اللغة ليس في متناول مدركات الفرد ما لم تتمظهر بمضمون اتصالي يتجلى بقدرة القائم بالاتصال على تطويع المهارات اللغوية لتشئ نص الرسالة التي يجدها ليفي شتراوس " لغوية بالدرجة الأولى " (57)

لذلك لا يصح عزل الرسالة عن الواقع الخارجي، وبالتالي فان الرمز لم يعد وحدة إنشائية في النص الاتصالي فحسب، وإنما عنصر قادر على إقامة علاقة جدلية بين عالم الداخل والواقع المادي الذي يتمرى فيه وعليه فإن إمعان النظر في النص الاتصالي. يوصل المتلقي إلى القبض على الكثير من الدلالات التي يسعى المتلقي للوصول إليها والتي لا يمكن رؤيتها آو كشفها إلا برؤية الواقع المادي في داخل شفرات النص، فالرمز تركيب لغوي يكشف أسرار اللعبة اللغوية وعمقها، وما النظرة في داخل النص إلا إحالة وحضورا للمحيط اجتماعي، وهذه الثنائية أدت بطريقة حتمية إلى ظهور ثنائية مماثلة في تفسير وظيفة اللغة وتحديد معنى الرمز في داخل الرسالة فبدت (اللغة شكلها شكل النقود تعبر عن ذاتها بشكل مادي (58) .

<u>فاعلية التركيب وفاعلية القراءة :ـ</u>

من الأهمية بمكان أن نعي بان للغة تأثير في إدراكنا وتشكيل تصوراتنا عن الواقع الخارجي، ويمتد هذا التأثير ليشمل الفئات التي نستخدمها في تصنيف مدركاتنا، فالمنبهات التي نتلقاها من البيئة المحيطة تحفز استجاباتنا إزاء ما ندركه، وتتمثل هذه الاستجابات في انتقاء عددا من هذه المنبهات و وضعها بصيغة أو تشكيل أو سياق ما، يقود عملية تحرير المعنى لدى المصدر الذي يأخذ على عاتقه مسؤولية تحويل الأفكار إلى رموز فيصبح للمنبهات معنى، ومن الطبيعي أن يكون لبنائنا المعرفي وعادات استخدامنا للغة دورا في اقتناص الكودات وتحويلها إلى كلمات أو تعبيرات حركية ذات معنى

ليقوم القائم بالاتصال لاحقا ببثها بالوسيلة المناسبة. وتأسيسا على ذلك " فالاتصال يتأثر بشكل مباشر بعادات استخدام اللغة ، وبهذا تصبح اللغة جزءا لا يتجزأ من هذه العملية "(59)

ويقول ماركس بشأن (اللغة بأنها تجسيدا أو تشيئا للوعي) (60) على اعتبار أن اللغة ،والرمز، والاتصال، مفاهيم تتصدى لمشكلات عميقة، عمق وجودنا، فتعمل على ترميزها، مما يخلع عليها معان غاطسة.

وفي كثير من الأحيان يواجه المتلقي صعوبات تتعلق بتصور المعنى، ففي الفنون جميعا لا نجد تعارضا بين اللغة والاتصال لأن مفهوم النشاط اللغوي، ينحصر في نظام ثنائي يميز بين المفردة والرمز، وفي كل مرة يمكن الاهتمام بواحدة من الوحدتين، فإذا كان المصدر يهتم بتركيب الكلمات، فعلى المتلقي أن يجيد فن القراءة، وان يجيد فن اليقظة للوصول إلى الكلمات، لأنه سيتلقى سيلا عارما من الأنساق اللغوية المشحونة بالرموز والأفكار، فاللغة " في كل ميادينها رموز الأفكار....والكلام جسم مادته الكلمات ....وأجزاؤه تختلف على حساب مادة موضوعه " (61) بعبارة أخرى على وفق وسيطه التعبيري، فالسرد الصوري جسم مادته الصورة، والمسمع الإذاعي جسم مادته الكلمات ..ومهما أختلف نوع الوسيط التعبيري وتنوعت وظائفه ، فستلتقي جميعا بقاسمها المشترك، الاتصال مع الآخر، وهو غاية التعبير، فضلا عن كونه الرابط الأقوى بين جميع أنواع الاتصال، وكلها " تهدف إلى غاية واحدة هي التعبير ....(كما أن) غايتها تحقيق الصلات بين الإنسان، أو معرفة الإنسان للأشياء "(62) .

وتأسيسا على ذلك فان عملية شحن اللغة بالرموز والتعارضات سيضع المتلقي في مواجهة فضاء من الاحتمالات الدلالية ، فلا يكتفي حينها المضمون الاتصالي من الاستمرار بترشيح دلالات جديدة، كلما اصطدم بقراءة أو قارئ جديد، حيث تتحول الكلمة إلى إشارة ، لا لتدل على معنى فحسب، وإنما لتثير في الذهن إشارات أخرى، تخلع على المضمون الاتصالي في نص الرسالة فاعلية البقاء بفعل إنتاج مستويات من التأويل المتصل في كل مرة بسياقه الاجتماعي، لأن " تعدد الدلالات يمنح النص طاقة إيحائية هائلة ويجعله قابلا لقراءات متعددة " (63) .

بيدَ أن الوصول إلى طبقات المعنى التي تتفاوت في العمق، والمنتجة بفعل كيفية التعبير، رهين بالتفاوت في الفروق الفردية التي تلعب دورا بالغ الأهمية في إنتاج قراءات متنوعة للنص وبعض من هذه القراءات يأتي سليما وآخر لا يتلمس طريقه إلى مكمن الصواب، مع تسليمنا الكامل بان ليس من حق المتلقي، أن يذهب إلى ما يشاء، وقد كان الحال هكذا على مر العصور وسيظل مليئا بقراءات غير متوحدة. إلا أن ذلك كان يتزامن على الدوام بالسعي إلى تشخيص الصعوبات الأساسية المتعلقة بتصور المعلومة المندرجة في رسالة القائم بالاتصال والتي تنضوي ضمنا على غاية وموقف، لأن المصدر يتصل لكي يؤثر باتجاهات جمهور المتلقين، وأداته في ذلك هي اللغة حيث تصبح اللغة هنا " غاية ووسيلة معا، لها وجودها المستقل ...وأنها أداة إبلاغ وتوصيل " (64) متجسدة بشكل نص الرسالة المعبر عن الموقف الاتصالي الذي تمثل باختيار الكلمات، ووصفها، ورصفها، وتشكيل العبارة، وتمكينها من احتواء المعنى، بطريقة تثير اهتمام المتلقي لذلك فنحن (نتكلم من اجل أن نبلغ هدفا) (65) ونتصل بالآخر من اجل هدف ما، ويحدث أن المتلقي قد يقرءا كود الرسالة بشكل سليم ويصل للغرض الذي ينشده المصدر، وقد لا يفهم المعنى بالكامل عند حدوث قراءة خاطئة فيصاب بما

نسميه بعدم التيقن فيحرفها أو لا يعيرها الاهتمام الكافي، مما يستدعي من القائم بالاتصال إجراءا إضافيا، وهنا ينبغي أن نؤكد على أن قيمة المضمون الاتصالي تتمثل بأنه معرفه تنقلها شفرات اللغة، وهذه الأخيرة هي وسائل لمعالجة مشاعرنا ومواقفنا، فضلا عن كونها أسهامة جادة لتكوين نظام اتصالي، ولذلك فهي بمجملها أفكار إنسانية محكومة باعتبار انفعالي لأن (القول العاطفي لا يمكن فهمه دائما بمعزل عن إشارة من نوع ما) (66)

اللـــــــــغة والـفـكـــــر :ـ

وبغض النظر عن دور اللغة الانفعالي والموقف من الآخر، وبعيدا عن دورها في تحقيق التآلف الاجتماعي والمشاركة في الاتصال، تسهم اللغة في البناء الفكري والمعرفي للإفراد، وعلى وفق هذا المنظور تستحيل اللغة إلى " وسيلة ضرورية لتنمية الفكر الفلسفي وتوصيله ...باعتبارها عنصر أساسي في هذا الفكر " (67) ولعل الأساسي في هذه الفكرة، لا يختلف في شكله ومضمونه عن تصورات أرسطو في تلاصق اللغة بوحداتها ـ الكلمات مع الفكرـ ، فقد " كانت اللغة عند أرسطو رمزا للفكر ....وبدون الكلمات لا يتيسر فكر ولا علم " (68) .

أن افتراض الواقع هو إشارة واللغة ببنيتها هي حاضنة هذه الإشارة كما أن الأخيرة أداتها في التعبير، أما المفاهيم التي تنضوي تحت ظلال الأشياء في فضاء اللغة فليست محسوسات مادية بل منظومة من الكلمات المتوائمة، أما حقيقة الموجودات في الواقع، فيتم الحصول عليها عبر ترميزا لغويا بالغ التعقيد ينتمي لفعل الإدراك " وان ما يتسرب إلى الذهن هو فكرة عن الشيء وليس الشيء ذاته ....وإن ما تدركه العين هو علامات لا موضوعات معزولة والعالم تسكنه العلامات " (69) وما الدلالات التي تحررها العلامات إلا نتاج تجربة إنسانية مشتركة فضلا عن كونها وليدة ثقافة بعينها . لكن تظل " العلاقة بين اللغة والموضوع علاقة حقيقية " (70) فإننا نتواصل مع الأخر من خلال عملية عقلية ونفسية تصل إلى أبهى حالاتها في مادة الفكر، وهي اللغة وسيلتنا التي ألفناها منذ الأزل " فكانت وسيلتنا للوقوف على الأفكار، أو على الكلام النفسي، و اللغة هي التي تكسب هذه الأفكار ظاهرة الحالة الطبيعية للأشياء " (71) وتضعها ضمن مدركاتنا الحسية بفعل قدرتها على ضبط مفهومها ومن ثم موضوع وجودها الحسي ولذلك كانت اللغة عند أرسطو رمزا للفكر كما أسلفنا ولا وجود لفكر دون لغة، كما لا يوجد بناء بالمعنى الصحيح إلا لما هو لغوي، ولعل مقولة ليفي شتراوس " تعطي تحديدات دقيقة لدور اللغة وفهمها بقوله : بأن النشاط الرئيسي للذهن هو العملية الرمزية التي تتمثل باللغة " (72) وان أية نظرية تعنى بهذه الخصـوصية إنما ستعني التفكير ممارس بالتمثيل الرمزي الذي هو اللغة ، وتأسيسا على ذلك " تصبح اللغة وسيلة التفكير الإنسانية "(73) .

ومن هنا يتأتى القول بأننا لا ندرك الوجود إلا عند أو إثناء وعـــينا بـــه لغويا، وتأسيسا على ذلك فاللغة هي الشكل الوحيـــد الذي ينطـــــوي عـــلى إدراك الموجودات ، وتتجلى أبرز صور هذا المعنى في مقولة جاك دريدا " من أننا لا ندرك الكينونة، إلا عند وعينا بها لغويا، أي حين نعبر عنها لغويا....والموقف نفسه يتبناه فيلسوف التأويلية ـ مارتن هيدجر ـ ....إننا أيضا لا ندرك الكينونة إلا بعد الوعي بها داخل اللغة " (74) وبما ان " الكلمات علامات حسية للأفكار على حد تعبير جون لوك" (75) كما أنها الرابط المشترك بين فن تركيبها من قبل القائم بالاتصال، وفن قراءتها من قبل

المتلقي، لذلك فهي التي ترشد إلى المعنى و بها يتمظهر وجود الفكرة، ولعل مقولة – ليفي شتراوس – السالفة الذكر تخلع على هذا التصور تحديدا صارما عن دور اللغة في هذا الإطار .

ويبدو جليا من أن " انجح الوسائل لوصف هذا التواصل، هي اللغة، فنحن نتواصل تواصلا لغويا إن صح هذا التعبير "(76) وتحت هذه الكيفية ثمة حقيقة مفادها: بأن مجمل العمليات الاتصالية، وعلى اختلاف أنواعها إنما تتوقف على إيصال الرموز إلى الآخرين لأنها - أي الرموز- هي الوسائل التي تعتمد على توحد الفهم المشترك للمعاني التي تحملها، وما الاتصال إلا عملية حمل الرموز للمعاني العرفية " فالرموز هي العمود الفقري للاتصال الجماهيري ،وبدونـها لا يمكن للاتصال إن يحقق أغراضه " (77) فالإنسان لا يستطيع التعبير عن أفكاره إلا عن طريق وسيط مادي قادر على التعبير السليم عن المعاني في الأعمال أو الرسائل الاتصالية التي لابد إن تتجسد بصورة ما ، ومن دون هذا التجسيد لا يمكن لأحد أن يعرف مضمونها ، وهنا يبرز دور اللغة باعتبارها منظومة رمزية فما الحروف والألفاظ ووحدات التعبير إلا رموزا، وهذا يتوافق بالضرورة مع فكرة " أن الرموز مستعملة بشكل واسع في التواصل البشري " (78) والجوهري في العملية الاتصالية، يتمثل بعملية الترامز، حيث يشكل الرمز الأساس المادي والمطلق في الاتصال الذي مهما اختلف وتنوع فانه يظل قائما بين قطبين المرسل الذي لابد أن يرسل الرموز عن طريق وسيط ما، والمتلقي الذي سيقوم بالاستقبال فيحلل الرموز ويفسرها، انطلاقا من مرجعية ساندة للتوافق النفسي والفكري الذي يعيش في ظله الإنسان مع العالم الخارجي والذي ينعكس في علاقات اجتماعية مع الآخرين .

وأمثل توصيف للغة في الاتصال اللفظي أوفي الاتصال غير اللفظي، هو أن يقال عنها بأنها الوسيط المطلق لأنها بلا شك ليس العنصر المهيمن فحسب بل أيضا العنصر الذي تتجلى فيه حقيقة الوسيط، فيمنحه المعنى والنظام، كما يمنحه القوة التي لا تضاهيها قوة، خصوصا، حينما يتعلق الأمر بالصورة في وسائل الاتصال الجماهيري السينما والتلفزيون .

فالرموز كوحدات لغوية منتجة لبنية الرسالة الاتصالية تتواشج كمترابط عضوي يعمل على إبراز دورها كبنية فرعية عاملة بطاقتها القصوى على أطلاق كل موحد قادر على إنتاج معنى ومضمونا محددين، حيث يتفق كلا من القائم بالاتصال والمتلقي على مفاهيمه المشتركة مسبقا، بمعنى أن ما تشير إليه كلمات ما، أو صور ما، هو تجربة ما، وهذه التجربة يتعادل فيها المصدر والمتلقي ولا تنطوي على موجودات البيئة فحسب بل تتضمن كل التجريد المتفق عليه من سابق، فتصبح الوحدات رموزا تعبر عن فكرة ما . هذه الفكرة هي تفسير سابق، ورؤية سابقة، كما أنها فهم واقع بين قطبي الدائرة الاتصالية من سابق، ويذهب ـ مارتن هيدجر في كتابه الوجود والزمن ـ لاختزال هذه الفكرة بقوله " حين يتم تفسير شيء ما على أنه شيء،فإن التفسير سيوجد أساسا على كونه سابق الفهم، سابق الرؤية، سابق التصور،ولا يمكن للتفسير أن يكون، دون افتراض مسبق لإدراك شيء مقدم إلينا" (79)

وما يسميه هيدجر بالافتراض المسبق يترادف لدى شرام بالتجربة المشتركة الإطار الدلالي لدى شرام

المستقبل أ

المستقبل ب

الإطار الدلالي

المستقبل ج

المستقبل أ يقع داخل الإطار الدلالي فيفهم كل شيء

بينما ب يفهم بعضا من الأشياء،اما ج ،يقع خارج الإطار فلا يفهم شيئا، ويعتبره ـ جادامير ـ من المسلمات، لأنه عنصر حاضر بالأساس في عملية تفسير أو تأويل حاملات المعنى، في أي نص أو مضمون اتصالي، وإن أية محاولة تفسير أو تأويل ينبغي أن

تضع ذلك في الاعتبار، لأنه المرجع، ثم لأنه ملتحم بفهمنا على حد تعبير ـ جادامير ـ الذي يشير إلى أن " الرأي المسبق والمفاهيم

المسبقة تعتبر جزءا حيويا من أي حالة تأويلية ...(فهو) التأريخ المؤثر....الوعي ألتأريخي الفعال، وعي أولي بالحالة التأويلية "

(80) ولابد من القول بان عمليتي الإرسال والتلقي ، هما عمليتان معرفيتان يجتهد فيهما الاثنان للحصول على أفضل تشكيل لغوي للتعبير عن المضامين والمعاني في الرسائل الاتصالية المتبادلة بينهما، فالأول يشكل رسالته ويحملها مضامين معينة ثم يبثها إلى المتلقي لتحقيق أهدافا يرومها، وهو بلا شك يتوقع من الأخير استجابة معينة تتشكل هي الأخرى بصيغة تعبيرية ما، إذ أن كل عملية تعبير تمثل في خلاصتها تحول الأفكار إلى منظومة من الرموز اللفظية أو غير اللفظية كما هو الأمر في السينما والتلفزيون والمسرح والرسم ....الخ، حيث يتمثل دور الأول بتحويل الأفكار إلى رموز بينما يقوم الثاني بتحويل الرموز إلى أفكار، وهكذا يستمر التواصل .في الدائرة الاتصالية (81) .

وقد ندرك أو لا ندرك بشكل كافي من أن اللغة كمنظومة سيميائية لا تزال غامضة ونائية، ولم تستطع قراءتنا أن تكشف حتى اليوم مطلق أساليبها كما لم تستطع معالجاتنا أن تناقش معالجتها بتأنٍ وعمق، ومع ذلك فإننا نستخدمها ونتخاطب بها ولا نبالي بوصف ما نصنعه، ومع كل ذلك تبقى اللغة تسهم في صناعة الفكر .

اللغة وفعل المعرفة :ـ

وتستقي كلمة الخطاب الاتصالي مشروعيتها من دخولها بقوة في بنية اللغة، ومن طبيعة المادة التي تعالجها، والسياق الذي تندرج فيه، ومن ثم فإن الخطاب الاتصالي يتكشف على صيغة كاملة تغطي فضاء النص من مفهوم منفتح على كل ما يتوالد في الخطاب من معالم معرفية ويصبح بالضرورة فوقها متقصيا أشكالها الجمالية . إن المضمون الاتصالي هو نص الرسالة وخطاب القائم بالاتصال في نفس الوقت، وتأسيسا على ذلك ينبغي ان نضع في اعتبارنا الحقيقة التالية " يتشكل الخطاب النصي من أبنية لغوية " (82) بمعنى أن التعاطي مع الخطاب الاتصالي ينبغي أن يكون أساسه اللغة باعتبارها أهم كيفية مناسبة لطبيعته، لكون الاتصال " نوع من التفاعل الذي يحدث بواسطة الرموز " (83) وعبارة أرسطو الشهيرة " بان الكلام تعبير عن التفكير " (84) أن هذه الرموز تشير إلى العلاقة بين القائم بالاتصال والمضمون وهي كيفيات لغوية أو قوليه، أساسها اللغة وكل لغة " تتألف من علامات " (85) وحسب تفسيرات سوسير فان العلامة هي التقاء دال ومدلول لها مرجعية واقعية مرمزة اجتماعيا. وفيما يخص حركية العلامة والدور الذي يقوم به القائم بالاتصال فقد أعطت نظريات ـ هجلمسليف Hjelmeslev ـ معنى بالغ السهولة فهي في مفهومه ليست علاقة بين صورة وشكل، ولا علاقة قائمة بين شيء مادي حاضر عيانيا ومفهوما غائبا، بل من منظوره نتيجة عملية رمزية يقترحها القائم بالاتصال ويفسرها المتلقي، ولعل أهم ما في هذا الحراك الدينامي بأنه لا ينُظر إليها كشيء واقع ، بل كشيء يحدث مع الاستخدام على أساس التقاليد المقبولة من كل من المرسل والمتلقي .(86) وتقوم هذه العلامات بوظيفتين " استكشاف المعنى والتواصل،الذي يتحدد كإيصال الرسالة من باث إلى مستقبل " (87) فإذا كان المعنى يتمثل ماذا ؟ فالتواصل يتمثل كيف ؟ وأحسن تمثل إلى ماذا، سيكون بكيف . ويتماهى ذلك مع التصور السوسيري لمستوى اللغة " مستوى العبارة ، ومستوى المحتوى، باعتبار وجود العبارة شرطا لوجود المعنى " (88) فالعبارة نسقا يتكفل بحمل المعنى(المضمون الاتصالي) للإبلاغ عن حالة قول المصدر المنضوي تحت نص الرسالة، وبالتالي فان السلوك الاتصالي يمثل تعلقا أبلاغيا قابلا لإقامة واقعه الإشاري، مما يجعل من رموز النص بناء علاماتي في خطاب يحققه المصدر، وهي لا تتمثل في إنتاج مقولات فحسب بقدر ما تتثمل بتوليد مضامين اتصالية، تنتج تأثيرا دلاليا يمكن أن نسميه اتصالا، ومن هنا فان العملية الاتصالية تتصل بممارسة فعل المعرفة، وأداتنا في المعرفة هي اللغة التي تتمثل " غايتها بتحقيق الصلات بين الإنسان، أو معرفة الإنسان للأشياء " (89) .

والجدير بالذكر أن العلامة بحد ذاتها كوحدة مكونه " من شكل المضمون وشكل التعبير، وقائمة على التضامن بينهما وهو ما يسميه سوسير بالوظيفة السيميولوجية وعندئذ تصبح الوحدة ذات وجهين مفتوحة على اتجاهين صوب الخارج حيث مادة التعبير وصوب الداخل حيث مادة المضمون " . (90)

وفي مقاربات لباختين بين مفاهيم النص والبلاغة " يرى انه حيث لا يوجد نص فليس ثمة موضوع للبحث وللتفكير والنص عنده سواء كان مكتوبا أم شفاهيا يعتبر مادة أولية تقوم بتحليلها الألسنة والفلسفة وغير ذلك من العلوم (ولدى لوتمان) تأتي العلاقات الداخلية للنصوص باعتبارها تكوينات سيميولوجية متوحدة "(91) .

شرط النص حضور المتلقي :-

إذا كان المصدر هو الشخص الذي يؤسس حواره بوضع أفكاره في صيغة رموز تعبر عن المعنى المراد، وان هذه الرموز تشكل الرسالة التي تستهدف المتلقي، فمن البديهي القول بان المتلقي هو مستقبل الرسالة وهو الذي يقع عليه عبء فك رموز الرسالة وتحويلها إلى أفكار ومعاني، وهما في هذا الفعل الاتصالي مشتركان، فضلا عن أنهما يتبادلان الأدوار أيضا فالمتلقي هو كذلك مرسل في ظرف ما، كون الرسائل التي ستصدر منه حددتها الرسائل التي تلقاها، وفي الاتصال ألمواجهي النموذج الأمثل حيث يقوم كل من المرسل والمستقبل بوظيفتين هما الإرسال والاستقبال في نفس الوقت،و هنا يكون منطلق دائرة الاتصال أو كما يسميه سوسير "دائرة الكلام " في ذهن أولهما، حيث تنضوي تحته أحداث الوعي وهي المفاهيم المرتبطة بتصورات العلامات اللغوية أو ما يسميها بالصورة السمعية المستخدمة للتعبير عن تلك المفاهيم ، وفي الدماغ يحدث الترابط النفسي بين الصورة السمعية والمفهوم المطابق لها .(92) إلا أن نجاح عملية الاتصال يرتبط " بمدى معرفتنا بنوعية الجمهور الذي يستقبل الرسالة، ولذا فإن معرفة الخصائص الديموغرافية والخصائص السيكوغرافية للجمهور تكون أساسية لتوجيه الرسائل الملائمة إليهم " (93) وإذا ما تجاوزنا عن وعي الآليات المرتبطة بمكونات عملية الاتصال لأنها ليست موضوع بحثنا هنا، لكنا رغبنا بالتعرض لها بقدر مناسب، مع رغبتنا بالتأكيد على أن العملية الاتصالية بمجملها محكومة أيضا بالبيئة الاجتماعية والثقافية وبعدد من العناصر الأخرى التي تشكل مدركات المتلقي والتي في ضوئها أيضا تجري عملية تفكيك وحدات النص الاتصالي، وهذا الإجراء لا يقتصر أبدا على الصحافة بل يمتد لكل المجالات التعبيرية وكل بحسب خواص الجنس الذي ينتمي إليه الوسيط سواء كان مسموعا أو مقروءا أو مرئيا، وكل وسيط تعبيري من هذه المجموعة وغيرها، لابد أن يصل إلى المتلقي بصيغة شكل أو بهيئة ما، وان يتجلى ببنية وهذه البنى تظل ماثلة لدية بشكل ما، لتفضي إلى الوحدات المحررة لها، وبذلك تؤدي وظيفتها داخل البنية الكلية للنص بالمستويين التوليدي بما يختص بالعلاقات الداخلية بين الوحدات وتراكيبها، ودلالي فيما يختص بالمعاني وبهذا الشكل فان الكود كوحدة جزئية يعبر بالضرورة عن المضمون الاتصالي، وهو يشارك في الحركة العامة للمضمون، ويبلغ ذروته في المستوى الدلالي ثم ينتهِ إلى نتيجة طبيعية من كونه جزء من مؤلف في وحداته العضوية النامية .

ويرى ابن خلدون نتيجة للاحتفال بالصياغة أن العبرة بالألفاظ وأن المعاني تبع لها، ولعله يقصد أن الألفاظ دون المعاني هي مقياس براعة الكاتب وان الألفاظ هي التي تطلعنا على المعاني فهي الدليل عليها، وبدون الألفاظ لا يستطيع الفرد استجلاؤها، فالمعاني في منظوره متوفرة لكل إنسان، ولا تحتاج إلى صناعة، أما فيما يختص بتأليف الكلام للعبارة عنها هو الذي يحتاج للصناعة، فالألفاظ كالقوالب للمعاني (94) .

وفي فروض نظرية التلقي يسوق ـ مورس بكهام ـ فرضية تناقش الدور الوظائفي للعلامة في إطار حراكها في مجالي التلقي والمعنى فالعلامة لا تستطيع أن تقول شيئا إلا بوجود شخص يستقبلها، ويستجيب لما تريد قوله، وفي ظل غياب المتلقي واستجابته فلا وجود لدلالة ولا معنى، وهو تصور يتوافق مع ما تناوله ـ بارت ـ عن معنى النص، من أن النص بكامله علامة . وان لا وجود له في غيبة المتلقي، وهو تصور يتسق أيضا مع فلسفتي الظاهراتية والتأويلية في موقفيهما من اللغة والمعنى،

على اعتبار أن المعنى لا وجود له خارج اللغة، وتأسيسا على ذلك ليس ثمة أمكانية لإدراكه قبل أو خارج السياق اللغوي، بعبارة أخرى أن معنى النص لا وجود له إلا في لحظة إدراكه أو وجوده داخل وعي المتلقي(95) ويبدو أونج أكثر تطرفا حين يشترط وجود النص بحضور المتلقي بحيث يبدو بأنه الأساس لفكرة يجب أن يكون ثم يجب أن يعني شيئا ما " يجب في الكلام كما في الكتابة إن يكون ثمة متلق حاضر وألا فلن يتم إنتاج النص " (96) فما المعاني التي لدينا ألا ثمرة تجاربنا السابقة التي تشكلت منذ أن اكتسبنا المعاني الأولى لتلك الكلمات، ثم أخذنا نضيف إليها التفسيرات التي نحصل عليها، فكلما اتسعت تجربتنا، كلما اكتسبنا معانٍ جديدة، وهي عملية مستمرة باستمرار الحياة، حيث يعمل الإنسان على،دمج الجديد بمجموعة المعلومات السابقة التي تطورت عنه، وبالتالي فإن المعاني التي لدينا هي خلاصة كل هذه التجربة الغنية التي شكلت قيمنا ومعتقداتنا، ومدركاتنا.

وتأسيسا على ذلك لم يعد المعنى كامنا في الكلمة بل هو كامن فينا(نحن المرسل والمتلقي) لأننا نقوم بتخصيص أو إضفاء هذا المعنى، كما أن التفسير الذي نخلعه على الكلمة يقترن بإدراكنا عن استعمال هذه الوحدة والشخص الذي يستخدمها، لأن اللغة تستخدم بقدر كبير من الذاتية

وهكذا يدخل المتلقي في لعبة تبادل الأدوار بينه والمرسل وتذوب الحدود الفاصلة بينهما، يترافق ذلك مع تمظهر ثقافة المتلقي وتمثله لمعارف عصره في إطار السياق الاجتماعي، بمعنى أن البنية المعرفية للقائم بالاتصال و وعي المتلقي وإدراكهما لما حولهما، يدخلهما في حقل ثقافي ينتهي إلى مرجعية واحدة، أنتجت تلك الرسالة أو النص الذي يمتلك حضورا ينتمي إلى سياق ثقافي واجتماعي معين، وغاية يمارس القائم بالاتصال من خلالها آراءه وأفكاره ويحاور المتلقي وفقا لهذا المنظور، مما يجعل منه بناءا ذهنيا قائما على مجموع المضمون الاتصالي، وهو الدافع وراء إنتاج الاتصال، أما العلاقة بينهما فهي التي تبني الرسالة، وتأسيسا على ذلك ومن هذا المنظور تتعدد مستويات الاتصال، فالمستقبل ليس مجرد متلقي سلبي في العملية الاتصالية بل هو كيان له مرجعيته السياسية والثقافية والاجتماعية التي يخاطبها القائم بالاتصال، ساعيا إلى التأثير فيها وصياغة اتجاهها .

صنـــــاعـــة المعـــنى :ـ

وأن كلا من المرسل والمتلقي يكونان تصورا منظما عن العالم الذي يعيشان فيه، وكل يستخلص من هذا التصور في مدار الإطار الجمعي بناءا عاما له معنى، فكل المدركات متصلة ببعض وتنتهي إلى تجربة الفرد التي استحالت إلى حاضنة تفسح مجالا أضافيا في التصور الذي كونه الفرد عن العالم في مرحلة سابقة، وكل مضمون اتصالي سيدعم التجربة و يرسخ التصور الأساسي، ولذلك ففي العملية الاتصالية يأتي قرار المتلقي وفقا للمدركات التي تفاعلت لديه من سابق، والتي تنادمت وتواصلت داخل سياق اجتماعي وثقافي . ويفترض ـ أمبرتو إيكو ـ " بأن كل أشكال التواصل تستلزم وجود سنن، و إذا كان علماء اللسان قد برهنوا على أن كل كلام يقتضي وجود لسان سابق عليه في الوجود، فيمكن افتراض أن كل إنجاز تواصلي يستلزم قدرة تسبقه ....وان السنن أو القواعد التي تضبط التواصل هي نتاج المواضعة الثقافية " (97) ويمثل هذا التصور تكون مكانة المتلقي على ذات القدر من القيمة التي يتمثلها المرسل أو القائم بالاتصال ، ويمكن اعتبار هذه الفكرة كواحدة من أبرز إستراتيجيات الوجود لدى متلقي الرسالة الاتصالية، لأن دوره هنا سيتعدى حالة استخلاص المعنى، لينتقل إلى حالة صناعة المعنى " فصنع المعنى وليس صنع الرسائل هو الذي سيحدد الاتصال، بصرف النظر عن

المضمون أو الإطار الذي يحدث فيه الاتصال . فالاتصال إذن هو عملية ديناميكية تحدث داخل الفرد الذي يقوم بالتفسير" (98) مما يحوله من مستهلك سلبي إلى مستقبل متفاعل مع المصدر، حين يقوم بملء فجوات النص الاتصالي. وهذا في حقيقته استحقاقا يسننه متلق جدير بمكانته النوعية في العملية الاتصالية .

ولكن لا ينبغي أن نتجاهل من جانب آخر بأن المعنى ذاته ليس سوى جزء لا يتجزأ من وسائل المصدر التعبيرية ذلك لان تجربته لا تعني بتجميع الأفكار والوقائع فحسب بل تمثل إدراكا ثقافيا وعاطفيا لمجمل الحياة ، فاللغة تنتج درجات متفاوتة من الارتباطات الذهنية القادرة على خلق مستوى من الإعجاب والأداء المندمج مع التجربة الحاضرة والمباشرة لصياغة كلا ذا مغزى .

وفي هذا الكل تتأسس قراءات متعددة بسبب تعددية التأويل وتعددية طبقات المعنى، المرتكزة على مهارات المتلقي وقدرته على استنطاق الوحدات التعبيرية من جهة، وعلى الطاقة الإيحائية للوحدات التعبيرية وقدرتها على تحرير عددا من الدلالات من جهة ثانية، وهو أمر يقربنا كثيرا من تصورات – شيلنـــــج- الذي يعتبر الصورة الفنية " تعبيرا متناهيا عن اللامتناهي" لأنها تنطوي على عدد لا نهائي من المعاني بحيث يصعب وضع معنى محدد في جوهرها، وكذلك تتأكد تباينات التوجهات هذه في طروحات – بارت – حيث يذهب إلى القول "بإمكانية الاختلاف المطلق في قراءة النص "(99) وهو ما ذهب إليه ـ آرنولد هاوزر- في قوله من أن تفسيرا جديدا إنما يغير من معـناه ومضمونه .وبالرغم من أن بيرس يحيل الرمز إلى العام الخارجي أي إلى مرجعيته وكذلك يفعل العلم إلا أن هذه الإحالة في الحقيقة سواء كانت فنـا أو علما إنما تعكس الواقع إلى حد نسبي على حد تعبير ميخائيل اوفسيانيكوف، إلا أن جان متري يرى " بان الواقعة منبع لا ينضب من المعاني بالنسبة للبشر "(100) وإذا توسعنا بتناول هذه المسألة واحتمالات تفسير الصورة في وسائل الاتصال الجماهيري فان متري يلفت النظر إلى نقطة بالغة الخطورة تناولها ـ ايزنيشتاين ـ في معرض حديثه عن اللغة الصورية وعن الصورة العيانية التي تحضر بالإنابة عن الواقع بقوله : " أن كل اللقطات لها ظلال عديدة من المعاني بالإضافة إلى معناها السائد "(101) . ومع أن الرموز منظومة من الأنظمة العلاماتية المتشابكة والتي لا تملك بالضرورة صفة النموذجية كما هي الموجودات في الواقع، وان الصوت والصورة هما نموذج لعملية تتم ضمن صيرورة متعددة الجوانب، وان الواقع المعالج ليس نظاما صارما، ولأن المرسل يدفعه إلى حيز الوجود حيث يكسبه معنى متوافقا مع اختياره الواعي لصياغة نظاما علاماتيا يتجمع في الصورة . إذن فمن الطبيعي أن تقودنا هذه الجدلية إلى ساحة اللغة مباشرة، وهي الحقيقة التي يمكن استخلاصها لتخطي أية عقبات تحول دون الحديث عن الصورة والرمز واللغة بذات الكيفية .

وتأسيسا على ذلك يصبح من المفيد القول بان الرموز نتاج واع، بكيفيات الواقع بمجمل معانيه، ولأنها كذلك، فإن لها شكلا ومحتوى، وهما يمثلان بالضرورة شيئا أو مفهوما، وعليه فان الرموز عموما ، مباشرة أو غير مباشرة، لفظية كانت أم غير لفظية، إنما هي تعبير عن فكرة ما، وهي تعمل كجسر تواصل، وهي علاقة، بمعنى أن الأشياء حينما تستحيل إلى رموز تتجسد في علاقات مركبة ومعقدة مع الذين يوظفونها ويستخدمونها ومع الواقع الذي يدل عليها، وهي تندمج مع كل الرموز التي تنتمي إلى نظامها . إذا ما دخلت في العملية الاتصالية في إطار اللغة التي يستخدمها ويفهمها الأفراد الذين

يتواصلون مع بعضهم في نقل الأفكار وتبادل المعلومات المتعلقة بالواقع . ويظل هذا الواقع سجلا لكينونات تتمثلها اللغة .

المصادر والمراجع :ـ

(1) بنكراد، سعيد : السيميائيات ..مفاهيمها وتطبيقاتها، الطبعة الثانية دار الحوار، سوريا :2005 ، ص61 .

(2) حبيب، راكان عبد الكريم وآخرون : مهارات وسائل الاتصال،مكتبة دار جدة . جدة :2004 ، ص 62 .

(3) المهوس،عبد الرحمن بن إبراهيم : فنون الاتصال اللغوي .الطبعة الأولى، (ب د) الخبر : 2007 . ص 32 .

(4) كورك ،جاكوب : اللغة في الأدب الحديث ـ الحداثة والتجريب ـ ت ليون يوسف عزيز ،دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد : 1989 . ص 122 .

(5) مارتن،مارسيل: اللغة السينمائية، ترجمة سعد مكاوي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر،القاهرة :1964 ، ص 7 .

(6)أيوب، عبد الرحمن : ملاحظات حول دروس في علم اللغة ، في أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقيا، مقالات مترجمة، إشراف سيزا القاسم ونصر حامد ابو زيد: الجزء الأول، شركة دار إلياس العصرية،القاهرة : (ب ت) ص 71 .

(7) المهوس،عبد الرحمن بن إبراهيم :المرجع السابق ،ص13 .

(8)كورك، جاكوب : المرجع السابق ، ص 26 .

(9) حبيب،راكان عبد الكريم وآخرون: المرجع السابق، ص 31 .

(10) عبد الحميد ، محمد : نظريات الإعلام واتجاهات التأثير،الطبعة الثانية ، عالم الكتب الحديث ، القاهرة: 2000 ، ص 247 .

(11) عبد الله،عدنان خالد : النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية ،وزارة الثقافة، بغداد : 1986 ص 30 .

(12) ناصف ،مصطفى : اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة العدد 193،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: 1995 ص 33 .

(13) المعتوق، احمد محمد : الحصيلة اللغوية،عالم المعرفة، العدد 212 ،أغسطس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت: 1996 ، ص 42 .

(14) عبد الحميد، محمد : المرجع السابق . ص 248

(15) عودة،محمود وخير، السيد محمد : أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي ، دار النهضة العربية، بيروت : 1988 . ص 7 .

(16) الجردي ،نبيل عارف : مقدمة في علم الاتصال . العين ، مكتبة الأمارات، الأمارات : 1985 ، ص 21 ـ 22 .

(17) محمد ،محمد سيد : المسئولية الإعلامية في الإسلام، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر : 1986 . ص 29 .

(18) روبين، برنت : الاتصال والسلوك الإنساني ، معهد الإدارة العامة ، السعودية: 1991 . ص 91 .

(19) رشيد ، أمينة: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة . مدخل إلى السيميوطيقا المرجع السابق ، ص 56 .

(20) إيلام، كير : سيمياء المسرح والدراما،ترجمة رئيف كرم، الطبعة الأولى ،المركز الثقافي العربي ،بيروت : 1992 : ص 56 .

(21) فاخوري، عادل : حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء) ،عالم الفكر، المجلد 24، العدد الثالث ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت : 1996 ، ص 179 ـ 180 .

(22) هلال، محمد غنيمى : النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة : (ب ت) ص 42

(23) عبد الله ،عدنان خالد : المرجع السابق ، ص 33 .

(24) ناصف، مصطفى : المرجع السابق ، ص 31 .

(25) حبيب،راكان عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ، ص63 .

(26) هلال ، محمد غنيمى : المرجع السابق ،. ص39 .

(27) بونتي ،موريس ميرلو: المرئي و اللامرئي ، ترجمة سعاد محمد خضر، دار الشؤون الثقافية، بغداد :1987 ، ص 139 .

(28) هلال، محمد غنيمى : المرجع السابق: ص39 .

(29) رشتي ،جيهان أحمد :الأسس العلمية لنظريات الإعلام ،الطبعة الثانية ،دار الفكر العربي ، القاهرة : 1978 ، ص 103 .

(30) حمودة،عبد العزيز : الخروج من التيه ـ دراسة في سلطة النص ،سلسلة عالم المعرفة ،العدد 298 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت : نوفمبر ، 2003 ، ص 159 .

(31) الحباشة ،صابر : تحليل المعنى مقاربات في علم الدلالة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان : 2010 ، ص 30 .

(32) كورك ،جاكوب : المرجع السابق ، ص 59 .

(33 المصدر نفسه : ص 43 .

(34) الحباشة ،صابر : المرجع السابق ، ص 30 .

(35) جيرو، بيير: علم الدلالة ، ترجمة منذر عياشي ،دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، سوريا : 1992 ، ص 21 .

(36) كورك ، جاكوب : المرجع السابق ، ص 73 .

(37)المرجع نفسه : ص 43 .

(38) الحباشة ، صابر: المرجع السابق ، ص 43 . .

(39) جيرو ،بيير : علم الإشارة السيميولوجيا .ت منذر عياشي ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق : 1992 ، ص 13 .

(40) ـــــــــــــــ : علم الدلالة ، ص 30 ـ 32 .

(41) بنكراد ،سعيد : المرجع السابق ، ص 64

(42) ستروك، جون: البنيوية وما بعدها، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة العدد 206،فبراير،المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب الكويت: 1996، ص 14 ـ 15 .

(43) المصدر نفسه : ص 12 .

(44) عبد الحميد،محمد: المرجع السابق، ص 314 .

(45) الغانمي، سعيد : أقنعة النص، دار الشؤون الثقافية ، بغداد : 1991 . ص20

(46) لوتمان، يوري : مدخل إلى سيميائية الفلم،ترجمة نبيل الدبس، مطبعة عكرمة، دمشق : 1989، ص 6 .

(47) مؤنس، كاظم : دراسات نقدية في جماليات لغة الخطاب البصري ،عالم الكتب الحديث ، الأردن : ص 62 .

(48) مداس، احمد : لسانيات النص ـ نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، .عالم الكتب الحديث، الأردن : 2007 ، ص 10 .

(49) المرجع نفسه : ص 10 ـ ص 11 .

(50) إيلام ، كير : المرجع السابق ، ص 78 .

"(51) المرجع نفسه : ص 86 .

"(52) القليني، فاطمة و شومان، محمد : الاتصال الجماهيري اتجاهات نظرية ومنهجية ،دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع ، القاهرة : 2004 ص 20 .

(53) هولب ،روبرت سي : نظرية الاستقبال . ترجمة رعد عبد الجليل دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا : 2007 ، ص 67 .

(54) ستروك، جون : المرجع السابق ، ص 51 .

(55) كوك، جاكوب: المرجع السابق ، ص 40 .

(56) المرجع نفسه : ص 39 .

(57) المرجع نفسه : ص 38 .

(58) كولماس ،فلوريان: اللغة والاقتصاد ، ترجمة أحمد عوض ، عالم المعرفة العدد 263 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت : 2000 ، ص 16

(59) رشتي ، أحمد جيهان : المرجع السابق ، ص 104 .

(60)كولماس،فلوريان : المرجع السابق ، ص17

(61) هلال، محمد غنيمي : المرجع السابق ، ص 41 .

(62) المرجع نفسه : ص41 .

(63) شعبان ،هيام :السرد في أعمال إبراهيم نصر الله ،دار الكندي ، الأردن : 2004 ، ص 27 .

(64) المرجع نفسه : ص 24 .

(65) ناصف ،مصطفى : المرجع السابق . ص 12 .

(66) المرجع نفسه : ص 25.

(67) المرجع نفسه : ص 28 .

(68) هلال، محمد غنيمى : المرجع السابق، ص 40 .

(69) بنكراد، سعيد : المرجع السابق : ص 120 .

(70) ناصف ، مصطفى : المرجع السابق ، ص31 .

(71) هلال، محمد غنيمى : المرجع السابق . ص40

(72) لوشن ، نور الهدى : مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي المكتبة الجامعية، الإسكندرية : 2000 . ص 6 .

(73) كولماس، فلوريان : المرجع السابق ، ص 149 .

(74) حمودة،عبد العزيز : المرجع السابق : ص 160 .

(75) المصدر نفسه : ص 159 .

(76) ناصف ، مصطفى : المرجع السابق ، ص31 .

(77) إمام ، إبراهيم : الإعلام والاتصال بالجماهير،مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة : 1984 ، ص 110.

(78) الحباشة ، صابر: المرجع السابق ، ص 30 .

(79) هولب ، روبرت سي: المرجع السابق ، ص 81 .

(80) المرجع نفسه : ص 82 .

(81) مؤنس ، كاظم : المرجع السابق ، ص 59 .

(82) فضل ، صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة العدد 164 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت : 1992 ، ص18 .

(83) مكاوي،حسن عماد والسيد، ليلى حسين : الاتصال ونظرياته المعاصرة، ط السابعة ،الدار المصرية اللبنانية ،القاهرة :2008 ، ص 24 .

(84) فضل ، صلاح : المرجع السابق ،ص18

(85) لوشن، نور الهدى : المرجع السابق، ص 36 .

(86) نابيس، كارمن بوبيس : علامات العمل الدرامي ، ترجمة خالد سالم ،مركز الحضارة العربية ،القاهرة : 2003 . ص 154 .

(87) كورتيس، جوزيف : مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية ، ترجمة جمال حضري،الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف ،2007 .الجزائر: 2007 . ص 56 .

(88) المرجع نفسه : ص 66 .

(89) هلال، محمد غنيمى : المرجع السابق، ص 41 .

(90) فضل ، صلاح : المرجع السابق ، ص 319 .

(91) المرجع نفسه : ص 252 .

(92) سوسير، دي فرديناند : فصول من دروس في علم اللغة العام، ترجمة عبد الرحمن أيوب ،في أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقيا، المرجع السابق ، ص 145 .

(93) مكاوي،حسن عماد والسيد،ليلى حسين : المرجع السابق ، ص 59 .

(94) هلال، محمد غنيمى : المرجع السابق، ص 247 .

(95) حموده، عبد العزيز : المرجع السابق ، ص 114 .

(96) أونج ، والتر ج : الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عزالدين ، ترجمة حسن البنا ، عالم المعرفة العدد 182 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت : 1994 ، ص 305 .

(97) إيكو، أمبرتو : سيميائيات الانساق البصرية ، ترجمة محمد التهامي ، ط 1 ، دار الحوار للطباعة والنشر، سوريا : 2008 . ص 17 .

(98) رشتي ، جيهان أحمد :المرجع السابق ، ص 95

(99) - ثابت . مذكور : النظرية والإبداع في سيناريو وإخراج الفلم

السينمائي .الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 1993، ص 425

(100) اندرو، ج . دادلي : نظريات الفلم الكبرى، ترجمة جرجس فؤاد الرشيدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة : 1987 . ص 181 .

(101) ثابت . مذكور : المرجع السابق . ص 421-426 .